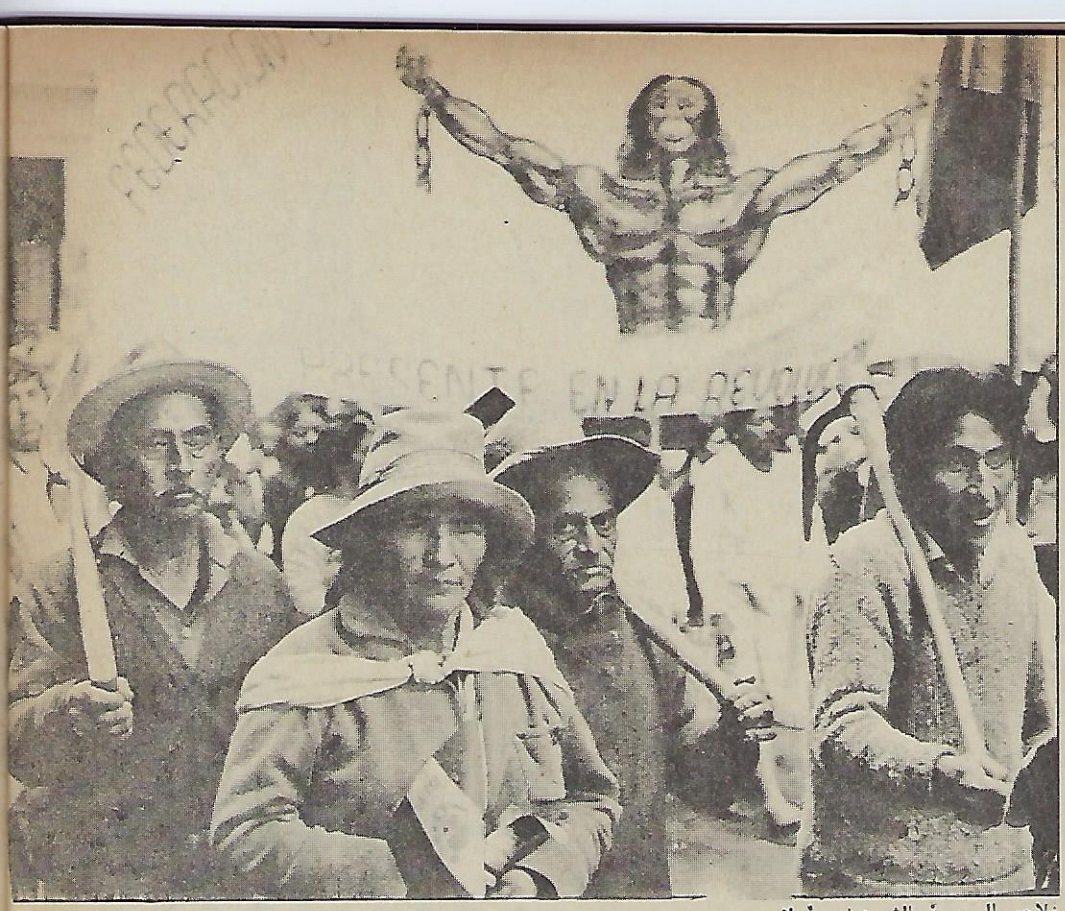

فلاحو البيرو : الثورة لهم أولا ..

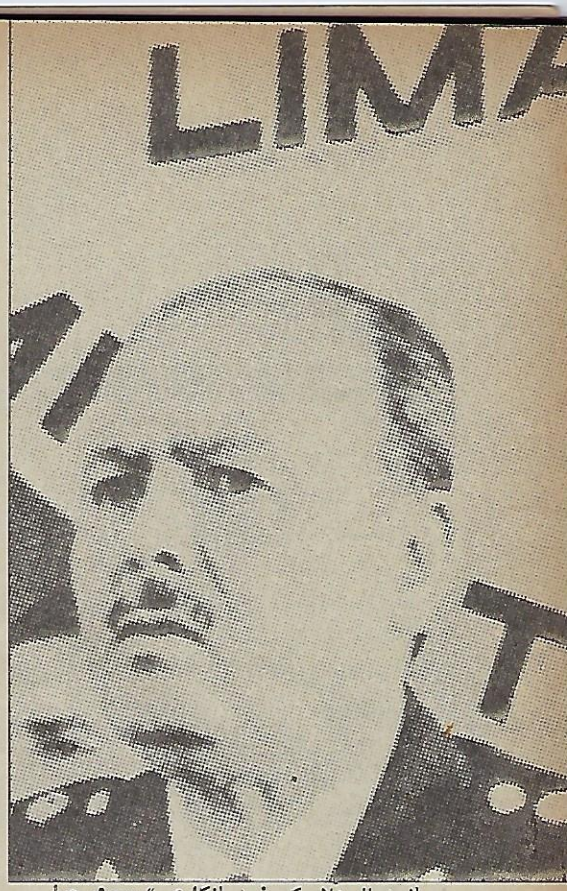

الجنرال فلاسكو : « انكاري » يبعث حيا

بيرو

سحابة صيف أم بداية ردّة ؟

بقلم احمد الجبيلي

منذ زمن غير قصير لم يعد في انقلابات اميركا اللاتينية ما يثير الاستغراب .. بات المراقب يتوقف لحظة عند الخبر ويقول : هذا انقلاب اخر .. هل يستحق انقلاب البيرو في التاسع والعشرين من آب — اغسطس أكثر من هذا المرور العابر ؟ الموسم عامر ، في الواقع ، داخل اميركا اللاتينية وخارجها . بعد البيرو ، الاكوادور .. وقبلها تلبد النذر في سماء الارجنتين .. وفي افريقيا دولة اسمها نيجيريا وفي اسيا تقع بنغلادش .. ناهيك بالحروب الاهلية . لا يسع أحدا أن يدعي ان العالم الثالث يستمتع بهدوء قيلولة ، ولا يملك الناس وقتا كثيرا يقضونه في استقصاء اسباب الانقلابات . لكن علامة الاستفهام التي يرسمها الانقلاب الاخير أمام تجربة البيرو ، جديرة ، رغم كل شيء بوقفة غير قصيرة .

شكوك ومقدمات

■ **لا نعلم ، حتى الان ، ان كانت هذه التجربة معرضة لخطر جاد نتيجة الانقلاب . فرأس الانقلاب واحد من أركان السلطة السابقة هو رئيس الوزراء . والاخبار في شأن الاهداف والاسباب متضاربة . من جهة يطيح الانقلاب بالرئيس فلاسكو ، وهو القائد « التاريخي » لثورة البيرو وصانع خطها ، ليأتي بالجنرال موراليس الى رئاسة الجمهورية ، بعد أن كان رئيسا للحكومة طوال ستة أشهر ووزيرا للمالية طوال أربع سنوات ، اكتسب خلالها شهرة الانتماء الى الجناح « المعتدل » من الطاقم العسكري الحاكم . ومن**

جهة أخرى ، نعلم أن الذين صنعوا الانقلاب ضباط من ذوي الاتجاه الجذري يريدون السير بثورة البيرو الى نهاية الشوط .. من جهة يبدأ الحكم الجديد مسيرتـــه باعتقال وزير يميني واجبار عـــدد من المديرين « المستغلين » في الصحف المؤممة على الاستقالة . ومن جهة أخرى يسجل المراقبون بوادر « الرضا » الظاهرة في واشنطن ، بعد الانقلاب . أما بيان الانقلاب الاول فيتحدث عن عبادة الشخصية ، في العهد السابق ، وعن اهمال ذلك العهد لقابليات الجماهير الثورية وعن ضرورة تحرير شعب البيرو .. الخ. وهذا كله كلام لا يرســم وجهة واضحة للحكم الجديد .. لا بد من الانتظـــار اذن أياما او اسابيع اخرى قبل ان يظهر ما تخبئه السلطة الجديدة لثورة البيرو ..

لكن التغيير في الواقع كانت له مقدماته .. جاء موراليس الى رئاسة الوزارة ، منذ ستة اشهر ، بعد أن سالت الدماء ، غزيرة لاول مرة ، في شوارع ليما ، خلال شباط ــ فبراير الماضي . كانت ثورة البيرو ، وقد بلغت اليوم ، سبع سنوات من عمرها ، تشهد انذاك سقوط قتلاها الاوائل . هوت ٨٦ ضحية وتكبدت البلاد خسائر قدرت بـــ ٤٠ مليونا من الدولارات ، نتيجة التخريب . ولم تكـن المواجهة ، في بدايتها ، خالية من الغرابة : كان الجيش يطلق النار على المتظاهرين من .. رجال الشرطة . لكن الامور ما لبثت أن عادت الى سياق أقرب من المعتاد : ارتفع صوت الطبقات القديمـة التي طعنتها الثورة ، وانتهز سكان مدن التنك الفرصة فاندفعوا ، بعنف بؤسهم ، الى الشوارع . لم تكن الثورة اذن قد استطاعت تحويـل المسيطرين القدامى الى رماد .. ولم تكن ، من الجهة الاخرى ، قد كسبت تماما ود المسحوقين . وكان لا بد للنظام الثوري الوحيد ــ بعد كوبا ــ في اميركا اللاتينية ، ان يسأل نفسه : ماذا استطـاع أن يفعـل ؟..

العهـد الاســود

كانت الجردة طويلة ، لا نتجاوز هنا رؤوس اقلامها . فلم يؤثر عن نظام بدأ بانقلاب عسكري انه استطاع ، في اي مكان من اميركا اللاتينية أن ينجز ما انجزه نظام البيرو ، في غضون سبع سنوات .

أطاح الجنرال فلاسكو وجماعته من القادة العسكريين بالرئيس بلاوندي تيري في الثالث من تشرين الاول ــ اكتوبر سنة ١٩٦٨ ، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة . كانوا يريدون، طبقا لبيانهم الاول ، أن يناضلوا « ضد ظلم النظام الاجتماعي والاقتصادي القائم » وان ينصفوا « الاكثريات التي تعاني من وطأة الهامشية » وأن يفـيروا

الجنرال موراليس : ماذا سيفعـل ؟

في سبيل ذلك «بنى الدولة والبنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية». والحق ان البيرو لم يكن ينقصها ما يستدعي التغيير .. هذه سطور من تحقيق لموريس ناجمان ترسم صورة الوضع قبل انقلاب ١٩٦٨ :

« التبعية والبؤس هما الكلمتان اللتان يسمهما وصف البـيرو قبل الثورة . كانت الشركات الاجنبية تسيطر على مجمـل القطاع المنجمي تقريبا .. وعلى معظم انتاج السكر والصيد البحري ، وعلى تسويق القطن والبن وعلى ٩٠ بالمائة من وسائط النقل وعلى اكثر من ٩٥ بالمائة من انتاج النفط وتكريره وتسـويقه .. وعلى اربعة من المصارف الستة الكبرى وعلى شركات التامين المرتبطة بها .. وعلى ٧٠ بالمائة من راسمال ١٧٠ مجموعة صناعية لها بعض الاهمية .. وربما استطاع رقم واحد ان يدل على حجم هذا النهب : بين ١٩٦٠ و١٩٦٥ وظفت الاحتكارات الاجنبية ٥٨ مليونا من الدولارات، وحصلت منها ١٤٧ مليونا » ..

« أما البؤس ، فان تحقيقـا أجري عام ١٩٦٣ يقدم عناصـر لتقييمه : في ذلك العام الذي لم يكن أسوأ من سواه ، على الصعيد الاقتصادي ، كان يموت طفل عمره اقل من سنة كل عشر دقائق ، بسبب مرض قابل للشفاء في الغالب . وفي ليما ، وهي مدينة ذات امتياز بالقياس الى الداخل كان اثنان بالمائة من الاطفال فقط يتناولون الحليب . وقد اظهر تحقيق اخر سنة ١٩٦٧ وجود اكثر من اربعمائة الف طفل متخلف عقليا و٢٥٠ الف مدمن للكحول ومليون من مدمنـي الكوكا (التي بلغ استهلاكها ٨١٣٧ طنا) .. » .

تضاف الى ذلك نسبة رهيبة من الامية ومن البطالة وشبـه البطالة وثقافة سحقت بعد أن عمرت الاف السنين .

أما قاعدة هذا النظام القديم ــ وكان قائما منذ ١٩٦٣ ــ فكانت تتشكل من ملاكي الارض والشركات الاجنبية وضباط الجيش . وكانت تحرسها بركة « التحالف من اجل السلام » وهي الصيغة التي ارساها جونكينيدي للسيطرة على اميركا اللاتينية،وكانت في أوج عزها انذاك.

خطـة « انكـا » وجسد « انكاري »

لم يكن الطاقم الحاكم يكتفي بالنوم عن بؤس الشعب وتبعية النظام . كان يضيف اليهما الفساد . وكانت علائم الاعياء ، من جراء ذلك كله ، تزداد بروزا . جرى تخفيض قيمة النقد بنسبة ٤٤ بالمائة. وكان ذلك يستلزم ــ في بلد مفتوح على السـوق العالمية ــ زيادة ضخمة في الاجور .. طال انتظارها . ثم اندلعت فضيحة تهريب ضلع فيها اقـارب للرئيس وبعض وزرائه . لكن المقتـل كان مشكلة ال آي.بي.سي. ، شركة النفط الدولية (وهي ، طبعا ، غير شركة نفط العراق ، وان كانت تشبهها كثيرا) . كان بلاوندي ــ انصياعا لضغط الشعب ــ قد وعد بتأميمها ، في غضون اسابيع ، منذ وصوله الى السلطة .. وطالت الاسابيع القليلة خمس سنوات كاملة . ثم جاء التأميم ، فاذا بالشركة ، بعده ، أقوى مما كانت عليه قبله . تخلت عن حقوق التنقيب . الا انها أعفيت من ضرائب متأخرة وديون قدرت ــ في ما بعد ــ بـ ٦٩١ مليون دولار .. هذا بينما قـدرت ممتلكاتها بواحد وسبعين مليونا فقط . ثم ان بلاوندي تخلى لها عن حقوق التكرير وتعهد بتسليمها البترول بسعر خاص .. وكـان هذا هو الجبل الذي قصم ظهر البعير !..

كانت البيرو ممزقة الاوصال اذن بين مصالح شرسة تتكالـب عليها من الداخل والخارج .. وكانت الاسطورة ، بين جماهير الفلاحين ذوي الاصل الهندي ، تحمل صدى هذا التمزق .. فاخر رجال قبائل الـ « انكا » ، سكان البلاد الاصليين ، كان يدعى ، حسب الاسطورة « انكاري » . وقد قطع المستعمرون الاسبانيون رأسه قبل بضـع مئات من السنين ووزعوا اعضاءه في طول البلاد وعرضها . القلب،

▪ هل تقترب السلطة الجديدة من الولايات المتحدة وتصفي التجربة الثورية في البيرو ؟

مثلا، يدفون في « كوزكو » والرأس تحت قصر الحكومة القديم في العاصمة ليما . لكن « انكاري » لا بد ان يقوم ذات يوم . لا بد ان تتجمع أوصاله ليقف في طليعة شعبه .. بعد ١٩٦٨ شاع بين الفلاحين ان « انكاري » قام فعلا وانه اتخذ لنفسه أسما هو الجنرال فلاسكو، رأس السلطة الجديدة ..

ماذا فعل فلاسكو ؟ نفذ ، على وجه الدقة ، هو ومعاونوه ، خطة « انكا » التي كانوا قد وضعوها قبل انقلاب ١٩٦٨ بستة أشهر ولم يكشفوا عن وجودها الا في العام الماضي . كان وضع جيش البيرو انموذجا لحالة الجيوش في العديد من اقطار العالم الثالث . فرجال الاقطاع والبرجوازية عازفون عن الانخراط فيه .

ومعظم عناصره من الريف المسحوق . ولا تتجاوز مخصصات الجنرال فيه ، الا بقليل ، ثلاثة امثال مخصصات الجندي البائسة . وكان من شأن هذا الجيش ان تنمو فيه اتجاهات تخرجه من خدمة سلطة الاقطاع والبرجوازية والسيطرة الاجنبية . وحين وصل الى السلطة أخذ ضباطه يقضون ثلث مدة خدمتهم في تثقيف انفسهم . وقالوا كلاما مليئا بالعطف على تجربة حرب العصابات الفاشلة في جبال البيرو .

وكان لهم فهم للامن غريب بعض الشيء على منطق الجيوش التقليدي : « ان الامن الاجتماعي هو التنمية ، اذا جرى تصورها على انها تحويل للعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية » !..

اشكال الملكية

امم فلاسكو الاي.بي.سي. طبعا وواجهها بحساب دقيق لما هو مستحق لها وما هو مستحق عليها . وباتت الدولة تسيطر على ٧٠ بالمائة من انتاج البترول وعلى ١٠٠ بالمائة من تكريره وتسويقه . وسار الانتاج المنجمي شوطا واسعا نحو النقطة نفسها . وسيطرت الدولة على ٨٠ بالمائة من التجارة الخارجية ، متجهة نحو احتكارها . وميزت في الصناعة بين ثلاثة قطاعات ، تبعا لنوع الملكية . فقطاع « الملكية الاجتماعية » يشتمل على مجمل المرافق الاساسية (التعدين، الخ ..) ، وهو قد اتخذ شكله المستقر خلال العام الماضي . وقد حرصت ثورة البيرو على التمييز بين الملكية الاجتماعية وملكية الدولة معتبرة الاولى تجديدا أدخلته هي على الممارسة الاشتراكية .. فالملكية الاجتماعية تتجه من تحت الى فوق . تنتخب المؤسسة مجلسها لثلاث سنوات (مع الاحتفاظ بحق نزع الثقة) وتتوالى الانتخابات حتى المستوى الوطني . وتقدم المجالس نسبة من الفائض الى الصندوق الوطني للتنمية وتشترك في التخطيط للمنشآت الجديدة، الخ.

ثم يأتي « القطاع الخاص المستصلح » ، وفيه توزع نصف أرباح المنشأة على العمال . ويتخذ قسم من هذه الحصة ، على الاقل ، شكل الاسهم ، بحيث ينتقل اليهم جزء يتزايد ، مع الزمن ، من ملكية المنشأة . ويشارك مندوبو العمال في الادارة ، ويكون وزنهم في مجلسها متناسبا مع حجم الحصة التي استحوذوا عليها من الاسهم. ويشتمل هذا القطاع على منشآت الصناعة التقليدية (النسيج ، الاغذية ، الخ ..) .

أما القطاع الخاص « الحر » فيشتمل على المنشآت الحرفية

وأما التعاونيات فهي سائدة في الزراعة خاصة .

الاصلاح الزراعي

والحق ان الاصلاح الزراعي هو أبرز ما حققه نظام فلاسكو . فهو قابل للمقارنة بأفضل ما تم في اميركا اللاتينية ، على هذا الصعيد ، بما في ذلك التجربة الكوبية . كانت تجربة فلاسكو في الريف هي الثالثة .. لكن الاصلاحين السابقين اقتصرا على اثنين بالمائة من الاراضي ، في هذا البلد الشاسع . ولم يكن الريف يخلو، في اي وقت من التململ الفلاحي . وهو تململ اتخذ منذ عام ١٩٥٩ صورة انتفاضة متمادية ، انضم معظم قادتها ، بعد ذلك ، الى تجربة الاصلاح الزراعي الجديدة . انطلقت هذه التجربة سنة ١٩٦٩ . انذاك كان ٨٣ بالمائة من الفلاحين (اي نحو ٧٠٠ ألف ملاك) لا يملكون الا ٥ره بالمائة من الاراضي . وكان ٣٧٠٠ ملاك (اي نحو ٤ر. بالمائة) يضعون ايديهم على ٧٦ بالمائة من الارض .. بعد خمس سنوات من تطبيقه ، كان الاصلاح الزراعي قد طال ٧ ملايين هكتار تقريبا ، وكان قد افاد منه مائتا ألف عائلة ، وكان مليون ومائتا ألف من فلاحي البيرو قد باتوا ملاكين للارض التي يفلحونها .

ولم تكن التجربة بلا صعوبة . كانت الامية ووزن التقاليد يعميان الفلاحين عن حقوقهم . وكان الكثيرون من الموظفين — الملاكين يستدرجون سندات التمليك الجديدة الى ادراجهم أو يزوغون من تدابير الاصلاح . وكان التجهيز الفني للزراعة بالغ السوء .. وزاده سوءا أن بعض الملاكين باعوا الالات — ومعها المواشي — قبيل وصول الاصلاح . وكانت سياسة التنمية في الزراعة شبه غائبة .

لكن الكثير من هذه المعيقات جرى تذليله . وضعت حدود صارمة للملكية هي ١٥٠ الى ٢٠٠ هكتار مروي على الساحل ، و١١٥ الى ١٧٥ هكتارا مرويا في الداخل . ومنعت منعا باتا اعادة التجميع بواسطة البيع . وجرى تشجيع تعاونيات للانتاج الزراعي يسودها نظام انتخابي وتوزيع للارباح مقياسه الاول هو عدد ساعات العمل التي يقدمها الفلاح . واتبعت ترتيبات صارمة لتقييم سعر الارض (قائمة على أوراق الضرائب التي كان الاقطاعيون يملأونها مقللين من قيمة الارض للتهرب من الضريبة !) .. وكانت الدولة تبدأ استيفاء سعر مخفض للارض من الفلاحين بعد خمس سنوات تمضي على تمليكهم اياها ، ثم تدفع تعويضا مقسطا للملاكين القدماء . وقد أثارت مسألة التعويض هذه احتجاجات عارمة بين صفوف الفلاحين ، وبدأ كثيرون منهم يمتنعون عن الدفع ..

ولم يكن الشكل التعاوني هو شكل التنظيم الوحيد . بل ان « شركات زراعية ذات منفعة اجتماعية » تأسست ، وبلغ عددها في العام الماضي ثمان وعشرين ، وهي تجمعات كبرى يملكها اشخاص معنويون وطبيعيون ، وتضم احداها ١٧ ألفا من الفلاحين يستثمرون ٤٠٠ ألف هكتار !..

ذلك ان اسلوب الاصلاح الزراعي في البيرو يستوحي — مبدئيا على الاقل — موقفا سياسيا واعيا : « اصلاحنا يستبعد حل التفتيت الرأسمالي وحل التأميم الاشتراكي الزائف » .. لكن الكلام ليس صورة ثابتة الامانة للواقع . فسرعان ما لاحظ قادة الاصلاح الزراعي انفسهم ان التعاونيات مثلا تعيد بناء العلاقات الرأسمالية ، فتفاوت

الانفجار على جدول الاعمال

التجهيز ويبدأ اللجوء ، في التعاونيات القادرة ، الى عمال من الخارج يقعون فريسة لاستغلال جديد ، الخ ..

جهد التعبئة

وما ينبغي التشديد عليه هو ان مدى السيطرة على الصناعة او على الزراعة ليس كل الجديد في ثورة البيرو ، بل ان الثورة بذلت جهدا ضخما لاستحداث تعبئة شعبية تعوض اثار المركزية التي وسمت تدابير الاصلاح . كان موقف المجالس المهنية والتنظيمات الاخرى يتميز دائما بحدة النقد الموجه الى السلطات ، المركزية منها والمحلية ، وبصلابة الموقف من الطبقات القديمة . وكانت حرية هذا النقد مكفولة على وجه التعميم . هذا رغم ان السلطة حاولت تكريس « مهنية » التنظيم الشعبي موجهة اياه نحو « خدمة » المهنة ، مبعدة اياه عن تعاطي السياسة ، صراحة ، وحتى عن العمل النقابي التقليدي . لم يمنع ذلك قيام ٣٧٢ اضرابا سنة ١٩٧١ شملت ١٦٧ ألفا من الشغيلة .. وكان هذا العدد ، في أوج موجة « المشاركة » (في الارباح وفي الادارة) يتخطى تخطيا ملحوظا ما سجل خلال السنة السابقة . وكان يدل على ان النظام لم يستطع اخماد الصراع الطبقي (الذي يعاديه صراحة) ، ولم يفلح في تبديد حذر الجماهير المتأصل من العسكريين ومن كل ما تأتي به الدولة .. رغم ذلك لم ينجرف نظام فلاسكو نحو القمع . بقيت احزاب المعارضة قائمة ، ولو ان البرلمان قد ألغي ومعه سائر المؤسسات الملحقة به . واحتفظت هذه الاحزاب بسيطرتها على اتحادات عدة في الحركة النقابية المقسمة . ولم تؤسس « حكومة القوات المسلحة » حزبا تسود به على الحياة السياسية في البلاد . بل اكتفت « بجهاز تعبئة » يضم سبعة الاف موظف .. واذا كان الاصلاح الزراعي هو ابرز منجزاتها الاقتصادية، فان الريف هو ايضا مجال لانجع تجاربها في التنظيم الشعبي : ١١٤ رابطة فلاحية تضم مليونين وسبعمائة الف من ستة ملايين ريفي في البيرو ، ويؤطرون ١٧ اتحادا يعترف «جهاز التعبئة» بـ ١٣ منها .

لكن وقع الثورة في المدينة كان أقل وهجا .. بقي مليون ونصف المليون من سكان البيرو يعيشون في مدن الصفيح .. بذلت جهود ضخمة لوضع مصيرهم في ايديهم ودفعهم الى النهوض باحيائهم . لكن هذه الاحياء ظلت بؤرا للتوتر تنتظر أدنى الشرارات .. وفي مجال الصحة والتربية بذلت الدولة ايضا طاقات كبرى يحفزها موقف سياسي متقدم : كسر الفارق بين المعرفة الفنية والمعرفة المجردة ، التوفيق بين حقل التربية وحقل العمل ، الخ .. لكن الامية مثلا لم يقض عليها .. وظل ولاء قطاعات كبيرة من سكان المدن للثورة موضع شك كبير .. ولم تنزح الاستكانة السابقة تماما عن الارياف .

الجار في الشمال

لم يكن الجار الامبريالي الكبير في الشمال يحدج بعين الرضا تجربة الثورة في البيرو . منذ عام ١٩٦٩ جرى وقف جميع «المعونات» والقروض . ثم زادت الامور سوءا عام ١٩٧٢ حينما خرق فلاسكو الحصار المفروض على النظام الكوبي واعترف به . وعاد البلدان الى نوع من التعاون ، في الحقل البترولي خاصة ، خلال السنة التالية. لكن العام الماضي شهد سلسلة من التأميمات أزاحت عن البيرو ريقة كبرى الشركات المنجمية الاميركية في البلاد ، وبضع شركات اخرى كانت تعمل ، خاصة ، في حقل المواصلات ، بينها الـ آي.تي.تي. ذات التراث العطر في تدبير مجازر الشيلي . وكان فلاسكو يعلن في مواجهة الحصار أن البيرو « مستعدة للتخلي عن النمو الاقتصادي اذا تعارض مع سياستها الثورية » .. هذا بينما كان حجم الصادرات الى البلدان الشيوعية يتضاعف أربع مرات بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٢ .

من جهة اخرى ، لم يعرف عن العسكريين وعن قادة جهاز الدولة في البيرو انهم جنوا ، من جراء ممارسة السلطة ، امتيازات فاضحة تداني ما هو قائم في بلدان اخرى . لكن ذلك لا يعني انهم ظلوا مع سائر الناس سواسية كأسنان المشط . بل ان اقتصاديا بارزا في البيرو لا يأنف من الحديث عن نشوء « برجوازية دولة جديدة » هناك. ما سر الرضا الذي ابدته واشنطن ازاء انقلاب مورالیس اذن ؟ هل تعمد السلطة الجديدة الى الاقتراب من الولايات المتحدة ، متبعة بذلك نهج برجوازيات الدولة في بلدان اخرى ؟ لا شك أن هذا الحلم راود بعض الاجنحة في السلطة الثورية . ولم يكن صراع الاجنحة هذا خافيا على أحد ، خاصة بعدما اصيب الجنرال فلاسكو سنة ١٩٧٣ بمرض عضال استدعى قطع ساقه ، غير ان مورالیس ، رأس الانقلاب الجديد ، اصر على مخاطبة وزراء الدول غير المنحازة المجتمعين في ليما ، قائلا : « ان السلطة الثورية التي تودعكم اليوم هي نفس السلطة الثورية التي استقبلتكم بالامس » . كان فلاسكو هو الذي استقبل ومورالیس هو الذي ودع . وقد اشرنا ، في بداية الكلام ، الى صعوبة البت ، منذ الآن ، بهوية السلطة الجديدة .

لننتظر اذن ... ■